العولمة والأدب

د. حسام الخطيب**
سورية

بما أن المقالات والدراسات والاجتهادات حول العولمة تنزل يوميا على دماغ القارئ العربي (إن قرأ) مثل زخ المطر الاستوائي، وتجنبا لمغريات الاستطراد والإطناب، نحاول في السطور القليلة المقبلة القبض على ماهيتها في نقاط محدودة، وعذرا للمدرسية في التصنيف، ولكنها تبقى على أية حال درعا واقيا من سوء الفهم والتفاهم.

١- العولمة Globalization هي مصطلح جديد، بلورته الدراسات الاقتصادية وطورته عن مصطلح سياسي سابق بدأت بوادره في السبعينات تحت اسم: النظام العالمي الجديد New Wurld Order. وكان هذا المصطلح في البدء غامضا جدا، وفهم منه شيء واحد هو فرض النمط الغربي الرأسمالي على سائر مناطق العالم.

٢- مع انتهاء الحرب الباردة، وبروز الأولوية في الغرب لقضايا الاقتصاد وحرية التجارة وحرية السوق، وكسر الحواجز أمام المغامرات التجارية الكبرى والشركات متعددة الجنسية، ومع أخبار الدمج المذهلة بين الشركات العملاقة، تطورت فكرة (العولمة)، أي تحويل العالم إلى قرية موحدة يتمتع فيها بحرية العمل من يملك المال أولا ثم المعلومات ثم القوة العسكرية ثم النفوذ السياسي.

٣- بدأت هذه التطورات التاريخية تتحول إلى أيديولوجيا أو شبه أيديولوجيا مائعة تشبه تقريبا اللبرالية الرأسمالية، وتمت إليها بأوثق الصلات. وأهم ملامحها:

أ- وحدة الاقتصاد العالمي في وجه التجزئة التي فرضتها النزعات الدينية والمذهبية والقومية والعرقية. فالمهم هو الإنتاج على المستوى الضخم Macro وتوزيع سكان الأرض إلى منتجين سادة، ومستهلكين عبيد.

ب- زعزعة الدولة القومية وتقزيم دورها مقابل سيطرة رأس المال والشبكات العملاقة.

جـ- تدمير ما أنجزته الإنسانية من منظمات دولية كالأمم المتحدة واليونسكو وإحلال تنظيمات أخرى ذات طبيعة مالية، وأهمها صندوق النقد الدولي ومنظمة التجارة العالمية، أي المالولوجيا (اشتقاق من صنعي الخاص مال+لوجيا) محل الأيديولوجيا.

د- يتبع ذلك الفيضُ الحرُ للمعلومات، والسيطرة على أجواء العالم إعلاميا، أي صناعة عقول البشر وغسل أدمغتهم بما يناسب مصالح الشركات القابضة.

٤- مع تصاعد نجم الولايات المتحدة الأمريكية اقتصاديا وعسكريا وسياسيا ومعلوماتيا وبحثيا، ومع انهيار القطبية الدولية، ومع تراجع القيم الإنسانية المتوارثة، برز النموذج الأمريكي ممثلا وقائدا للتطورات باتجاه العولمة، التي تختلف تماما عن مفهوم العالمية (الذي كان مشبعا بالقيم الإنسانية) وعن مفهوم الدولية (الذي كانت وحدته الصغرى هي الدولة القومية). ومع تزايد وعي

* مجلة الضاد ، العدد الثاني عشر ، ٢٠٠٢م.

** حائز على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب والدراسات اللغوية لعام ١٤٢٢هـ / ٢٠٠٢م.

أمريكا لذاتها ومع تزايد انفتاحها على العالم وامتصاصها للأدمغة، دخلت في اتجاهات العولمة فكرة سيطرة النموذج الأمريكي أو أمركة العالم. وأصبحت الدولة التجارية الجديدة تنبثق من أمريكا بمالها وأزيائها وأغنياتها وأفلامها ومباهجها ولغتها لتفرض نفسها مثلا تحتذيه الأجيال. وهكذا لا يخطئ الذين يفهمون العولمة على أنها هيمنة ودمج للعالم تحت مظلة النموذج الأمريكي.

٥- ويترتب على ذلك أن ترحيب كثير من الدول الصغرى حجما وقوة في العالم بالعولمة يمكن أن يكون ناجما عن وهم الاعتقاد بإمكان إزالة الفروق التقليدية بين الدول. أما في الحقيقة فكل ما تصنعه العولمة هو:

أ- تعميق الهوة بين الغنى والفقر، وبين الشمال والجنوب، أي جعل الأغنياء أشد غنى والفقراء أشد فقرا.

ب- إحياء الخصوصية المحلية من ناحية المظاهر وما يترتب على ذلك من تفتيت الدول والمجموعات الإقليمية،مقابل الاحتفاظ بكل مفاتيح الحياة المادية والإنتاجية بيد مركز الهيمنة الوحيد بالعالم.

٦- ولكن أي موقف ينبغي أن نأخذه من العولمة؟!

هذا سؤال له خبيء معناه ليست لنا عقول

أستعير بيت أبي العلاء المعري هذا لأعبر عن حيرة حقيقية إزاء واقع مضروب من حول أهل القرن الحادي والعشرين لا ينفع فيه صلح ولا استئناف. ولكن ما العمل ؟ فيما يتعلق بالاختيارات العربية، فإنه من الواضح في ظل الظروف المتسارعة التي تفرض نفسها أن المشكلة لا تكمن في ضرورة التعامل المباشر مع رياح العولمة فحسب، ولكنها تكمن في ضرورة التعامل مع العولمة كمجموعة عربية إقليمية متجانسة قادرة على تأمين مصالحها وهويتها في جو الصخب العولمي الذي يبتلع كل ما في طريقه.

أي بكلام آخر، إذا استمرت كل دولة عربية في اختيار طريق التفاعل مع تيار العولمة بأسلوبها الخاص ودون التنسيق والتعاون مع إطارها العربي وربما الإسلامي أيضا، فسوف تكون أكثر الدول العربية اندماجا مع متطلبات العولمة هي الأكثر عرضة للابتلاع والذوبان. وإن تجربة المفاوضات العربية مع العدو الصهيوني (أتعمد استعمال هذا المصطلح) هي أكبر نموذج لما يجره التفكك والانفراد من عجز حقيقي عن تحقيق المصالح المشروعة والهوية الانتمائية، مقابل بهرج الليبرالية والانفتاح، ومشاركة العالم في جنازات الملوك والرؤساء، تمهيدا للمشاركة في جنازات الدول مضمونا أولا وشكلا ثانيا.

وبذلك تكون العولمة قد وجدت مناخها المواتي. لن تستطيع أية قوة صغيرة أن تمارس أية سيادة في ظل عملاق العولمة، وينبغي ألا تحلم أية دولة قطرية باستمرار بعض مكاسبها الآنية نتيجة الانخراط مع التيار.

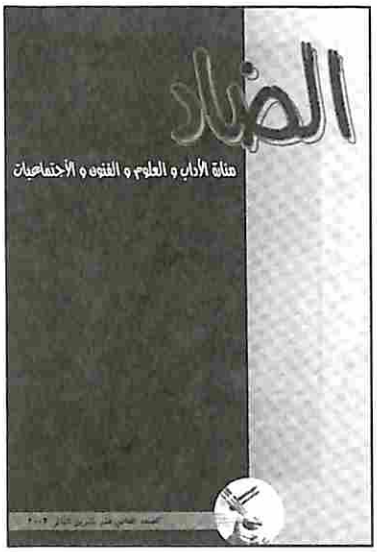

وإلا فلماذا لانرى آليات تفتيت الدول تتكرر يوميا في الاتحاد السوفياتي السابق أو تبدأ به، ثم البلقان، ثم إندونيسيا، ثم العراق، وكل ذلك بحماية ورعاية وتمويل وتدبير الولايات المتحدة الأمريكية وغطاء دولي من الأمم المتحدة وما وراءها من قوى مهيمنة وأحلاف.

٧- وأخيرا بقي سؤال متعلق بالأدب في عصر العولمة. وهنا يخيل إلى المرء أنه لا يمكن القضاء على النزعة الإنسانية القيمية للأدب مهما حدث من تطورات، ولكن سيكون من الحمق الاعتقاد أن المؤسسة الأدبية لن تتعرض لهزات كبيرة مع تعاظم دور المؤسسة المالية والهيمنة التكنولوجية. وقد ينشأ هناك أدبان: أدب تقليدي متطور مستمر في المحافظة على القيم الكبرى الإنسانية، وأدب إعلامي مبهرج مبرمج. وفي الحالتين لا بد من تصالح الأدب مع التكنولوجيا إذا أراد الأدب لنفسه أن يحافظ على حد مقبول من التأثير في البشر الذين من أجلهم يكتب الأدب نفسه، ولا سيما في المنطقة العربية التي كان فيها الأدب دائما - والشعر بوجه خاص - شرطا أساسيا من محركات الوجود الروحي والثقافي والحيوي، وملاذا نفسيا في جوّه يستعيد الإنسان إنسانيته التي تكاد تذوب في صخب الحياة المتلاطم، لتتوهج فيه أسمى مشاعر الكرامة الذاتية والتعاطف مع الآخر في وقت واحد.■